المادة الدراسية: النثر العباسي

المستوى الدراسي الثالث

عنوان المحاضرة : فنون النثر في العصر العباسي

أ.د. محمد عبيد صالح

مدخل:

يُعدُّ العصر العباسي من العصور التي شهدت تطورا كبيرا في النثر العربي بأقسامه كافه، إذ تحولت اليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية، بحيث تدخَّل جميع ذلك في تركيبه وائتلف مع نسيجه وتولد منه كل ما هو جديد.

وهذا التحول كان عن طريقين:

الاول: طريق النقل والترجمة: وهو طريق عُني به الخلفاء العباسيون وافراد مختلفون امثال ابن المقفع.

اما الطريق الثاني: فكان أوسع مجرى وهو تعرَّب شعوب الشرق الاوسط وانتقالهم الى العربية لكل ما ورثوه من فنون المعرفة ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط بل انتقلوا ايضا بعاداتهم وتقاليدهم في المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة بل مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الاقاليم التي دانت الاسلام وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الاسلامية

الروحيـة الخلقيـة ومـن الادب العربـي لشـعره ونثـره ومـن صـور الحيـاة العقليـة والماديـة فـي المحـيط العربـي الجديـد، ومـن هـذا المنطلـق أخـذ النثـر يتطـور تطـورا واسـعا اذ حمـل خلاصـة هـذه المدنيـة وقـد اظهـر النثـر العربـي مرونـة واسـعه اذ اسـتطاع أن يحتـوي كـل هـذه الينـابيع وان يتسـع لهـا صـدره وكـان ذلـك ايـذان بتعـدد شِـعب النثـر العربـي وفروعـه فقـد أصـبح فيـه النثـر العلمـي والنثـر الفلسـفي واصـبح فيـه النثـر التـاريخي علـى شـاكلة مـا كـان عنـد الامـم القديمـة وحتـى النثـر الادبـي الخـالص اخـذ يتـأثر بملكـات اللغـات الأجنبيـة وخاصـة اللغـة الفارسـية علـى نحـوي مـا هـو معـروف عنـد أبـن المقفـع وترجمتـه عـن هـذه اللغـة لقصـص كليلـة ودمنـه ونقلـه لكثيـر مـن آداب الفـرس الاجتماعيـة والاخلاقيـة ونضـمهم فـي السياسـة والحكـم ممـا كـان لـه أعمـق الأثـر فـي الرسـائل الديوانيـة وفـي نشـوء الرسـائل الأدبيـة التـي تُعنـى بالكتابـة فـي موضـوع محـدد ممـا نسـميه اليـوم باسـم المقـالات، ولـم يقـف النثـر العربـي عنـد حمـل المضـامين العلميـة والفلسـفية الجديـدة التـي جـاءت مـن لـدن الاجانـب فقـد أنبـرت العبقريـة العربيـة فـي هـذا العصـر تضـع العلـوم اللغويـة والشـرعية وجعلهـا لغـة علميـة محـددة الالفـاظ والاصـطلاحات التـي ترسـم المعـاني رسـما دقيقـا وعلـى نحـو مـا اثمـرت العقليـة العربيـة اثمـرت فـي المجـال العلمـي اثمـرت فـي المجـال الفلسـفي وخاصـة فـي بيئـات المتكلمـين واسـتطاعوا بأنظـارهم ان يـدلوا فـي جميـع هـذه الشِـعب بـآراء جديـدة ومـا يقولونـه فـي الاجسـام والاعـراض والجـواهر والحركـة والسـكون والطفـرة والوجـود والعـدم والـروح والـنفس والعقـل وادراك الحـواس وكـل ذلـك كـان لـه اثـار بعيـدة فـي النثـر العربـي لا مـن حيـث الالفـاظ والمصـطلحات الجديـدة فحسـب بـل ايضـا مـن حيـث ذخـائر الفكـر الفلسـفي اليونـاني والعربـي التـي التقـت فـي اوعيتـه واوانيـه والتـي جعلتـه عـرف صـورا مـن حيـث تحليـل الافكار وتركيبها لا عهد له بها .

ومع هذه الثورة الفكرية عظم شأن الكتابة وزاد الاقبال عليها واصبح للكتاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية.

كان الكتاب في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة تراهم يحفظون القران الكريم وقسما كبيرا من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء فضلا عن تزودهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الامم الاخرى مباشرة او بعد ترجمتها الى اللغة العربية.

لقد توسعت الافاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الامة الاسلامية وتولت رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرانية فنجد هناك كتابات في التفاوض والتقاليد والعهود والعقود والتهاني والتعازي الى جانب التواقيع والخطب والرسائل والوصايا وهناك ايضا كتابات اخوانية كالشفاعة والعتاب والشكوى والاعتذار .

وقد سلك الكتاب آنذاك اسلوبين في كتاباتهم:

الاول: الاسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الالفاظ بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح والجلاء ورائد هذا الاسلوب ابن المقفع وها هو يوصي احد الكتاب في قوله: إياك وتتبع الكلام الحوشي طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العيّ الاكبر وقوله لأخر: عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة وسار على هذا الدرب الكثيرون منهم سهل بن هارون، واحمد بن يوسف.

اما الاسلوب الثاني: هو اسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء أجزاءه وتقطيع الكلام الى الفقرة المرسلة والمسجعة والاستطراد الى الاخبار والنوادر والتراجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومآثر الكلام كما نرى ذلك في اسلوب الجاحظ الذي سنتناوله في الشرح والترجمة له في محاضراتٍ لاحقةٍ بإذن الله.

ويمكن تتبع أهم الفنون النثرية في العصر العباسي على النحو الاتي:

أولا: فن الخطابة:

أشتهر العرب منذ عصر ما قبل الاسلام بالخطابة وعرفوا بفصاحة اللسان، وقوة البيان، وبراعة التعبير، وشدة التأثير، وزادت الخطابة ازدهار في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وبلغت القمة في عصر بني أمية لتوفر دواعيها الدينية والاجتماعية والسياسية وضلت رائجة في العصر العباسي الاول وبقيت المنابر قائمة تدوي بأصواتها الهادرة تدعوا الناس للدولة الجديدة وتلمهم حولها وتجمع قلوبهم في حبها وتتدد بالدولة السابقة وتزري برجالها.

وبرز عدد من ولاة الدولة العباسية وقوادها بالخطابة وقد وصلت الينا مجموعة كبيرة من خطبهم ويمكن أن نقسم الخطابة الى انواع وعلى النحو الاتي :

١-الخطب السياسية:

تُعدّ الخطابة السياسية من أبرز أنواع الخطب التي كانت تلقى آنذاك وظلت نشطة قُرابة قرن من الزمن في البيت العباسي وقد اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم وكان في تلك الحقبة خطباء بارزون من الخلفاء امثال ابو العباس والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وكلها- اي الخطب- تؤكد أحقية العباسيين بالحكم وصلتهم بآل الرسول صلى الله عليه . وقد أشتهر الخليفة الاول أبو العباس السفاح بالقدرة الفائقة على إثارة الناس والهاب مشاعرهم في خطبه ومن ذلك قوله: حين بويع بالخلافة(الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وايده بنا، وجعلنا أهله والذابين عنه والناصرين له وخصنا برحِم رسول الله صلى الله عليه واله وانبتنا من شجرته واشتقَّنا من نبعته وانزل بذلك كتابا يتلى فقال سبحانه (قل لا أسلكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى).

ثم ما أن لبثت الخطابة السياسية الى الضعف لأنها انما تزدهر حين تكفل للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن في بني أمية اما في هذا العصر فقد الناس هذا الامر بشدة فضعفت الاحزاب السياسية وفنيت او ذابت حريتهم في سلطانهم الباطش واتجهت الانظار الى من حدثته نفسه بخروج عليهم بخلاف او ما يشبه الخلاف ثم عادت الخطابة السياسية الى الظهور في فتنة الامين وحروبه مع اخيه المأمون ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر

الامـوي ومـا كانـت تمتـاز بـه مـن روعـة تجـذب النـاس الـى الاسـماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

٢-الخطب الدينية:

كانـت الخطـب الدينيـة تفـيض بـالوعظ والنصـح والارشـاد وتلقـى فـي الغالـب أيـام الجمـع والاعيـاد وقـد يشـارك فيهـا عـدد مـن الخلفـاء مـنهم المـأمون فـي قولـه مـن خطبـة لـه فـي يـوم جمعـه (**الحمـد لله مسـتخلص الحمـد لنفسـه، ومسـتوجبه علـى خلقـه، أحمـدهُ واسـتعينه واومـن بـه واتوكـل عليـه، واشـهد ان لا الـه الا الله وحـده لا شـريك لـه وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسـوله، أرسـله بالهـدى ودين الحـق ليظهـره علـى الـدين كلـه ولـو كـره المشـركون، أوصـيكم عبـاد الله بتقـوى الله وحـده، والعمـل لمـا عنـده والتنجُّـز لوعـده والخـوف لوعيـده: فانـه لا يسـلم إلّا مـن اتقـاه ورجـاه، وعمـل لـه وارضـاه فـاتقوا الله عبـاد الله وبـادروا اجـالكم بأعمالكم** .

أمَّـا الخطـب الحربيـة أو الجهاديـة والتـي تعـد (جـزء مـن الخطـب الدينيـة) فكانـت تأخـذ طـابع الاسـتنهاض والاستبسـال وشـحذ الهمـم وبـذل النفـوس مثـل قـول عبـدالله بـن طـاهر فـي تحـريض الجنـد علـى قتـال الخـوارج (**إنكـم فئـةُ الله المجاهـدون عـن حقـه الـذابَّون عـن دينـه الذائـدون عـن محارمـه الـداعون الـى مـا أمـر بـه مـن الاعتصـام بحبلـه والطاعـة لـولاة أمـره الـذين جعلهـم رعـاة الـدين ونظـام المسـلمين فاسـتنجزوا الله بنصـره بمجاهـدة عـدوه واهـل معصـيته الـذين اشـروا وتمـردوا وفـارقوا الجماعـة**

ومرقوا في الدين وسعوا في الارض فسادا فانه يقول تبارك وتعالى ان تنصروا الله ينصركُم ويُثبت اقدامكم)

اما الخطب الوعظية: فقد اينعت في بيئة الوعظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة وكانوا اخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وكان بعضهم يلم بمجالس الخلفاء ويعظهم واحيانا كانوا يستقدمونهم فيعضونهم حتى يبكون بما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات ومن كبارهم الذين عرفوا بمقامتهم المحمودة بين ايدي الخلفاء الثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزل الزاهد المشهور واعظ المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وبن السماك واعظ الرشيد ويروى عن اولهم انه دخل على المنصور يوما فقال له: **إن الله اعطاك الدنيا باسرها فاستر نفسك ببعضها، واذكر ليلية تمخض عن يوم لا ليل بعده فوجَم ابو جعفر من قوله وقال له الربيع: يا عمرو غممت امير المؤمنين. فقال عمرو: إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشي من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه .**

وكان ابن السماك محدثاً وواعظاً مؤثرا روى عنه أحمد بن حنبل وغيره وله كلام ومواقف بين يدي الرشيد تدور في كتب التاريخ والادب ومما يؤثر عنه انه دخل عليه يوما فقال له الرشيد عظني فقال:

يا أمير المؤمنين: اتَّقِ الله وحده لا شريك له واعلم انك واقفٌ غدا بين يدي الله ربك ثم مصروفٌ الى احدى منزلتين لا ثالث لهما جنة او نار. فبكى هارون حتى اخضلَّت لحيته.

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائما من الذكر الحكيم واحاديث الرسول الكريم واقوال اصحابه ومن سبقوهم الى الوعظ في العصر الاموي من امثال الحسن البصري.

٣- الخطب الحفلية:

وهي الخطب التي كانت تلقى في المناسبات كإعلان البيعة للخليفة او ولي العهد والمآتم والافراح والمواسم والوفود وهي في الغالب قصيرة ومؤثرة على نحو ما قالته احد الاعرابيات وقد تعرضت للخليفة المنصور في طريق مكة بعد وفاة ابي العباس السفاح: **(يا أمير المؤمنين أحتسب الصبرَ وقدِّم الشكر: فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنّةَ في الحادثين سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله، فسلم فيما سلبك واشكر فيما منحك وتجاوز الله عن أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين).**

مصادر المحاضرة:

- الادب العربي في العصر العباسي، تأليف د. ناظم رشيد دار الكتب للطباعة والنشر /الموصل،١٩٨٩م
- تاريخ الادب العربي العصر العباسي الاول تأليف د. شوقي ضيف الطبعة ٨، دار المعارف، القاهرة.
- تاريخ الادب العربي العصر العباسي الثاني تأليف د. شوقي ضيف الطبعة ٢، دار المعارف، القاهرة.